أعلام الجزائر في منطقة توات من خلال ثلاث مخطوطات

أ/ خير الدين سعيدي

جامعة الجزائر

ملخص:

تعد منطقة توات من أغنى المناطق في الوطن العربي بالعلماء في المجالات المختلفة، وقد كان لهؤلاء الثّلة الأثر البارز والهام في الثقافة و التراث الإسلاميين، غير أن العديد من هؤلاء العلماء ظلوا بعيدين عن الأضواء، بل إن نشاطهم الحثيث في الدعوة والإصلاح والتأليف غيب حاليا، ما يجعلنا في هذا المقام نسعى إلى التعريف بزمرة من أعيان المنطقة وذلك بما دونه أعيان المنطقة من تراث تاريخي متناثر إلى اليوم في المكتبات الشخصية لأعيان المنطقة.

وقد انتقينا بهدف تحقيق ما نصبوا إليه من خلال هذه المداخلة ثلاث مخطوطات مختلفة في المنهج الذي ألفت فيه، متقاربة من حيث الزمن الذي وضعت فيه، والهدف الذي سطره أصحابها من خلال تصنيفها.

و المخطوطات التي بين أيدينا تميط اللثام عن جوانب هامة وأعيان على قدر كبير من العلم والنشاط الفكري، أول هذه المخطوطات هو مخطوط "**نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات" لشهاب الدين أحمد الطاهري السباعي** التواتي الإدريسي وهو من علماء المنطقة الذين أرخو لفترات مختلفة من تاريخ المنطقة منذ تسرب الإسلام إلى نفوس سكان هذه المنطقة إلى غاية جلاء القوات الفرنسية الغازية للجزائر، ونجاح الثوار في استرجاع السيادة الوطنية. أما المخطوطين الثاني والثالث فهما لمحمد بن عبد الحميد البكري وهما على قدر كبير جدا ممن الأهمية أولهما : "**درة الأقلام**" وقد ترجم فيه للعديد من علماء المنطقة أو الذين زاروا المنطقة، كما واصل على نفس المنهج تقريبا وناظره في تصنيفه لمخطوط " **الدر الفاخرة** " الذي ذكره في نبذة عن تاريخ وعلماء المنطقة التواتية.

كما سنحاول من خلال هذه المداخلة التنبيه على بعض المصادر المخطوطة الهامة التي تتناول الترجمة لأعيان هذه المنطقة وعلى رأسها تلك الملحقة التي وضعت على مخطوط: "نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات ومن ذكر فيها من الأولياء والصالحين العلماء العاملين الثقات"

مقدمة:

تعد الدراسات التاريخية التي يضعها أهل منطقة ما أو أعيان قطر ما من أهم ما يصلنا من الموارد الإخبارية؛ وهذا لأنَّ هذه المصادر الخبرية كثيرا ما تكشف لنا العديد من الخبايا أو الأمور التي تتوارى في المصادر أو المراجع التي يكون أصحابها غريبون عن المنطقة، هذا الأمر هو ما دفعنا في هذه المداخلة نحاول أن نعرف بمجموعة من أعلام منطقة توات من خلال ثلاث مخطوطات مؤلفوها من أعيان هذه المنطقة، وهم غالبا ممن له باع في معرفة أنساب القبائل المتواجدة بمنطقة توات، وما تفرع منها من علماء كنت الرِّحال تُشدُّ للاستفادة مِن علمهم، وقد خلف هؤلاء العلماء تراث فكري في شتى المواضيع وفروع العلم من فقه ونحو وصرف وعلوم التزكية(التصوف) ولغة وحساب وتاريخ وغيرها من علوم المعرفة التي كانت منتشرة في أرجاء العالم الإسلامي، هذا التأثير الكبير الذي تجسد في انتشار كتب ثلة من علماء المنطقة في جميع أقطار المغرب الإسلامي.

هذا الأمر يحملنا في هذه المداخلة على أن نضيق ناطق البحث -لا من حيث مواضيع البحث وإنما من حيث الأعيان العلماء- حتى لا يشمل إلاَّ العلماء الذين لازال إلى اليوم نجهل مكانتهم في وسطنا العلمي الحالي وكان لهم الأثر البارز. وبما أن أمثال الشيخ عبد الكريم المغيلي أشهر من نار على علم فقد استثنينا

الحديث عن أمثال الشيخ من حيث الشهرة لنتجاوز إلى غيره ممن لا يقل عنه علما وإنما يقل عنه شهرة في الغالب الأعم.

إشكالية المداخلة:

تحاول هذه المداخلة البسيطة أن ترفع اللثام عن دور مجموعة من علماء المنطقة الذين كان لهم الدور البارز في الحياة الثقافية والعلمية في الجزائر خاصة و المنطقة المغربية عامة، و بهدف الوصول لهذا الغرض فقد اعتمادنا على ثلاث مخطوطات متقاربة زمنية من حيث زمن التَّأليف، إذ ألفت المخطوطات الثلاث في النَّصف الأوَّل مِن القرن العشرين.

والمخطوطات الثلاث التي بين أيدينا لعلماء من المنطقة - كما سيأتي- كان لهم علم بدقائق وخصائص المميزة للبيئة الصحراوية وما لها من انعكاس كبير على الحياة العلمية في المنطقة.

اسهاماتـــه الفقهيـــــة:

كان الشيخ سيدي محمد البكري بن عبد الرحمن كما يقال أعجوبة زمانه، فكانت إسهامة في شتى العلوم الشرعية والأدبية، و بحكم تخصصه في علوم الفقه فقد كانت له إسهامات فيه، فألف في علم المواريث نظما ونثرا، كما ألف في علم و التربية و السلوك منظومة سمَّاها: (المعيار للأفكار في ذم الاستقصاء للنظار)، وأبرز مؤلفاته الفقهية منظومته الفقهية التي وسمها بالأرجوزة بتسمية البحر العروضي الذي نظمها فيه وهو بحر الرجز، جاء بها

على منوال منظومة الشيخ بن عاشر – رحمه الله – جمع فيها ثلاثة فنون: علم التوحيد، وعلم الفقه المتعلق بأحكام العبادات، وألحق بها أحكام الذكاة، وعلم التزكية الموسوم بعلم التصوف بدأ المنظومة بقوله:

يقول من باسم الله الإله يبتدي وبالمحامـــد له في الأبد
محمد نجل عبيد رحمـــــــان لقبه البكري مولى الأوزان

رتبها على أبواب وتحت كل باب فصول، بدأ المنظومة بمقدمة شرح فيها منهجه في التأليف ثم باب علم التوحيد، ثم باب الطهارة وتحته فصول، وهكذا سار على نفس المنوال في باب الصلاة والزكاة والحج والإعتكاف والذكاة، وختم المنظومة بباب التصوف فجاء أطول باب في المنظومة، إذ جعل لكل آفة من آفات النفس التي جمعها الشيخ بن عاشر في أبيات فصلا يخصها، وجعل لكل واحد من مقامات اليقين فصلا كذلك، ثم ختم المنظومة باعتذار وخاتمة.

الخاتمة:

لقد الشيخ رحمه الله أية من أيات الله في عصره وقد وقد شهد له بذلك القاصي والداني ممن عاصروه ،غير أن دوام الحال من المحال ،وخلف بعد ذلك خلف لا أقول عنه أنهم أضاعوا الصلاة وتبعوا الشهوات ،ولكن أضاعوا تراث علمائهم فضيعوا بذالك أمر دينهم ودنياهم ... ولكن رغم هذه الصورة القاتمة إلا أن الخير سيبقي في هذه الأمة إلى قيام الساعة .

غير أنني أرى أن أختم هذا البحث ببعض التوصيات علها تجد أذان صاغية وقولبا واعية ألخصها على النحو التالي:

- لابد علينا أن نبعث هذا التراث المخطوط من جديد وهذه مهمة تقع على عاتق أبناء المنطقة علماء كانوا أو مثقين
- لابد من السعي في ترميم هذا التراث حتى لايندثر ،إما يعوامل الطبيعة ،أو بعوامل عوامل أخرى كالسرقة العلمية .
- لابد من جرد وفهرسة هذا التراث بالطرق العلمية (المكننة) حتى يسهل على الباحثين دراستها.
- هناك محاولات لتحقيق هذا التراث إما من طرف أيمة مساجد أو شيوخ بعض الزوايا ولإن كانت الفكرة محمودة الإ أنها وللأسف الشديد لاترتقي الى درجة التحقيق العلمي الذي تكون غايته ومقصده بعث هذه الكنور مجاننا ورجاء الثواب من الله .

وما توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه انيب

قائمة أهم المصادر والمراجع :

- جار الله الزمخشري: **أساس البلاغة** ، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط/الأولى: 1419هـ/1998م، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
- الجوهري: **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار،ط/ الرابعة 1407هـ/1987م، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان.
- زهير بن أبي سلمى: **الديوان** ،إعتنى وشرح حمدو طمَّاس، ط/ الثانية: 1426هـ/2005م، دار المعرفة، بيروت – لبنان.
- ش/محمد العالم بكراوي ، **نتف خطية من مخطوط – ترجمة وجيزة لبعض علماء توات**، خزانة المؤلف بحاسي القارة المنيعة
- ابن منظور: **لسان العرب** ، ط/الأولى: 1428هـ/2008م،دار الفكر، بيروت – لبنان.
- الشنفرة :**لامية العرب**: ، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت – لبنان.
- ش/ سيدي عبد العزيز سيدي عمر : **قطف الزهرات من أخبار علماء توات** ،ط/دار هومة الجزائر،
- ش/عبد العزيز سيد اعمر ، **قطف الزهرات في أخبار علماء توات** ، الجزائر ، دار هومة ،(2002).

- ابن فارس: **معجم مقاييس اللغة**: تحقيق: شهاب الدين أبو عمرو، ط/الأولى:1433هـ/2011م، دار الفكر، بيروت – لبنان.
- الفيروزابادي: **القاموس المحيط**، تحقيق وطبع: دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان.
- الأخطل، **ديوان الأخطال** ،تحقيق وتقديم: مهدي محمد ناصر الدين، ط/الثانية:1414هـ/1994، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.